السيرة النبوية للفتيان

(٢)

نُزُولُ الوَحْيِ

إعداد

أ.د. أحمد عمر هاشم

العبيكان
Obeikan

ⓒ مكتبة العبيكان، ١٤٣٠هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
هاشم، أحمد عمر
نزول الوحي./أحمد عمر هاشم. - ط٢. - الرياض، ١٤٣٠هـ.
٣٥ص؛ ١٧ × ٢٢سم
ردمك: ٩-٨٢٨-٥٤-٩٩٦٠-٩٧٨
١- السيرة النبوية ٢- كتب الأطفال
٣- الوحي
أ- العنوان
ديوي ٣، ٢٣٩ ١٤٣٠/٦٠٧٠

رقم الإيداع: ١٤٣٠/٦٠٧٠
ردمك: ٩-٨٢٨-٥٤-٩٩٦٠-٩٧٨

الطبعة الثانية
١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م

حقوق الطباعة محفوظة للناشر

الناشر: العبيكان للنشر
الرياض - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة
هاتف ٢٩٣٧٥٧٤ / ٢٩٣٧٥٨١ فاكس ٢٩٣٧٥٨٨
ص.ب ٦٧٦٢٢ الرمز ١١٥١٧

التوزيع: مكتبة العبيكان
الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة
هاتف ٤١٦٠٠١٨ / ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩
ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ «فوتوكوبي»، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴿٥﴾ ﴾

[القدر: ١ – ٥]

في غارِ حراء

مَضَى اثنَا عَشَرَ عامًا علَى زواجِ الرَّسول ﷺ منْ خديجةَ وقدْ قاربتْ سنُّه الأربعينَ، وبدأَ ينفرُ منْ حياة الجاهلية منْ حَوله، وحُبِّب إليه الخلاءُ، فكانَ يأخذُ طعامَه وشيئًا من الماء، ويذهبُ إلى غارِ حراء في جبلِ النورِ، وهوَ يبعُدُ نحوَ ميلينِ منْ مكةَ.

كانَ يقيمُ ﷺ في غار حراء الليالي ذوات العدد، يقضي وقتَه في التفكيرِ فيمَا حولَه من مشاهد الكَون وما وراءَها منْ قُدرة خلَّاقة مُبدعة، فتجتمع له ثلاث عبادات: الخلوة، والتعبد، والنظر إلى الكعبة، لأن غار حراء مطل على الكعبة وكانَ اختيارُهُ ﷺ لهذه العزلة طرفًا منْ تدبيرِ اللهِ؛ ليُعدَّه لما ينتظرُه منَ الأمانة الثقيلةِ والرسالةِ العظيمة.

انقطعَ ﷺ في غار حراء عن شَواغل النَّاس في حَياتهم الجاهليَّة، وأخذَ يتأمَّلُ فيما وراءَ هذَا الوجود، وقومُهُ في لهو وضَلال وعَمًى، يعبدونَ حجارةً لا تنفعُ ولا تضرُّ، وودَّ لو يغيِّرُ ما عليه قومُه منْ عقائدَ واهيةٍ، لا تليقُ بإنسانٍ لهُ عقلٌ يميِّزُه عنْ غيرِه منَ المخلوقاتِ.

ولما أكملَ الأربعينَ من عمره، وحانَ موعدُ الحادث الذي غيَّر مجرَى حياته، والذي كانَ اللهُ - سبحانَه وتعالَى - يُعدّه لهُ منذُ أربعينَ سنةً . . إنهُ نزولُ الوَحي وبدءُ تبليغِ الرسالةِ.

نزول الوحي

كانَ بَدْءُ نزول الوحي علَى النبيِّ ﷺ في شهر رمضانَ الموافق سنةَ ٦١٠م. ولنستمعْ إلَى السيدة عائشةَ - رضيَ اللهُ عنهَا - تروي[1] لنا قصةَ نزولِ الوَحْي:

أول ما بُدِئَ به رسولُ الله ﷺ من الوَحْي الرُّؤيَا الصالحةُ من النوم، فكانَ لا يَرى رُؤيا إلا جاءَتْ مثلَ فَلَق الصُّبح، ثمَّ حُبِّب إليه الخَلاءُ، وكان يخلُو بغَار حرَاء، فيتحنَّثُ[2] فيه الليالِيَ ذوات العدد قبلَ أن ينزعَ إلى أهله، ويتزوَّدُ لذلكَ، ثم يرجعُ إلى خديجةَ فيتزوَّدُ بمثلهَا، حتَّى جاءَه الحقُّ وهوَ في غارِ حِراء، فجاءَه المَلَكُ[3] فقالَ:

- اقْرَأ..

فقالَ:

- ما أنا بقارئ.

---

(١) في صحيح البخاري، وانظر الرحيق المختوم ص ٧٥.

(٢) التحنُّث: التعبُّد.

(٣) وهو سيدنا جبريل عليه السلام.

قالَ رسولُ الله ﷺ : «فأخذَني - يعني المَلَك - فغطَّني حتَّى بلغَ منِّي الجهد، ثم أرسلني، فقالَ: اقرأ.

فقلت:

- ما أنا بقارئ.

فأخذني فغطَّني الثالثةَ، ثمَّ أرسلني فقالَ:

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ﴾[1].

فَرَجَعَ بهَا رسولُ الله ﷺ يرجفُ فؤادُه، فدخلَ علَى خديجةَ بنتِ خويلد، فقالَ:

- زمِّلوني.. زمِّلوني..

فزمَّلوه حتَّى ذهبَ عنه الرَّوْع..

فقالَ لخديجةَ:

- ما لي.. لقدْ خشيتُ علَى نفسي..

(١) سورة العلق: الآية ١ - ٣. وكان نزول الآيات إلى قوله تعالى: ﴿علم الإنسان ما لم يعلم﴾.

ثم أخبرهَا الخبرَ. فقالتْ خديجةُ:

- كلا، والله ما يُخزيكَ اللهُ أبدًا؛ إنَّكَ لَتَصلُ الرَّحمَ، وتحملُ الكَلَّ، وتُكسِبُ المعدومَ وتقري الضيفَ، وتُعينُ علَى نوائبِ الحقِّ.

وانطلقتْ به خديجةُ حتَّى أتتْ به ورَقَةَ بنَ نَوْفَلِ بنِ أسد ابن عبدالعُزَّى ابن عَمِّ خديجةَ، وكانَ شيخًا كبيراً قد عَمي، فقالتْ لهُ خديجةُ:

- يا ابنَ العمِّ، اسمَعْ من ابنِ أخيكَ.

فقالَ له ورقةُ:

- يا ابنَ أخي ماذا ترَى؟

فأخبَرهُ رسولُ الله ﷺ خبرَ ما رأى، فقالَ لهُ ورقةُ:

- هذَا الناموسُ الذي نزَّلَهُ اللهُ علَى موسَى، ليتني أكونُ حيّا إذ يخرجُكَ قومُك.

فقالَ رسولُ الله ﷺ:

- أومخرجيَّ هُمْ؟

قالَ:

- نعمْ، لم يَأت رجلٌ قطُّ بمثلِ ما جئتَ بهِ إلا عُودِي، وإنْ يدركْنِي يومُكَ أنصرْكَ نصراً مؤزَّراً.

* * *

ثمَّ لمْ يلبثْ ورقةُ أن تُوفِّيَ قبلَ ظُهور الرِّسالة. وفَتَرَ الوحيُ عنْ رسولِ الله ﷺ زمنًا، ثمَّ عادَ مرَّةً ثانيةً وقالَ لهُ جبريلُ:

- يا محمدُ، إنَّكَ رسولُ الله حقّا.

فعرَفَ النبيُّ ﷺ أنه أصبحَ نبيّا من أنبياء الله وأنَّ الذي جاءَهُ هوَ جبريلُ - عليه السلامُ - مَلَكٌ منْ عند الله يبلِّغُه الرسالةَ. وتتابعَ الوحيُ ينزل علَى رسول الله ﷺ يربّيه ويصقلُه، ويرغبُه ويرهبُه، فقدْ أنزلَ عليه سورةَ القلم التي تكشفُ لهُ عنْ أساليب الكفر الماكرة الخادعة، وتوصيه أن يصبرَ لحكم ربِّه، ودعوته، ثمَّ أنزلَ عليه سورةَ المزَّمِّل ترسُمُ لهُ خُطُوات المنهج التربويِّ، الذي يأخذُ منه زادَ هذا الصبرِ علَى تبليغ ذلكَ القول الثقيل، وتحثُّه على قيامِ الليل، مدرسة الدعاة الأولَى، ومصنعِهم الدقيق، ثمَّ أنزلَ عليه سورةَ المدَّثِّرِ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ

﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾[1].

فعلمَ رسولُ الله ﷺ أنه أمرَ بالدعوة إلى دين الله، دين الإسلام فشمَّر عنْ ساعد الجدِّ، وبدأ يدعُوْ مَنْ حولَه ثلاثَ سنوات اتَّسمتْ فيهَا الدعوةُ بالسرِّية خوفًا من إيذاءِ المشركينَ والكفَّار، ولذلك سُمِّيتْ بمرحلةِ «الدَّعوةِ السريةِ».

(١) سورة المدثر: الآيات (١-٥)

حَوْلَ كيفيَّةِ الوَحْيِ ومراتِبِه

عُنِيَتْ السُّنَّةُ النبويةُ الشريفةُ بتوضيح كيفية الوحي، وبيان الصور والمراتب التي كانَ عليها..

منْ ذلكَ ما رواهُ الإمامُ البخاريُّ في صحيحه - بسنده المتصل عن عائشة - رضيَ اللهُ عنها - أنَّ الحارثَ بنَ هشَامَ - رضي اللهُ عنهُ - سألَ رسولَ الله ﷺ فقالَ: يا رسول الله، كيفَ يأتيكَ الوحيُ؟

فقالَ رسولُ الله ﷺ: «أحيانًا يأتيني مثلَ صلصلة الجرس، وهو أشَدُّه عليَّ، فيفصمُ عنِّي، وقد وعيتُ عنهُ ما قالَ، وأحيانًا يتمثَّلُ لي المَلَكُ رجلاً فيكلمني فأعي ما يقولُ».

قالتْ عائشة رضيَ الله عنها: «ولقدْ رأيتُهُ ينزلُ عليه الوحيُ في اليوم الشديد البرد فيفصمُ عنهُ وإن جبينَه ليتفصَّدُ عرقًا».

وليستْ ظاهرةُ الوحي محصورةً في هاتين الحالتين: مثل صلصلة الجرس، وتَمثُّلِ المَلَك رجلاً، وإنَّما هناك حالاتٌ أخرَى زائدةٌ علَى ذلكَ، فمنْ حالاتِ صفة الوحي: مجيئُه كدويِّ النحل، والنفثُ في الرُّوع، والإلهامُ، والرُّؤيا الصالحة، والتكليمُ صراحةً ليلةَ الإسراء بلا واسطة.

وعلَى هذَا فلا يُرادُ بالحالتين المذكورتين في الحديث حصرُ الوحي فيهما وأنهمَا تُحملان على الغالب، أو أنَّ سواهمَا من الحالات قد وقعَ بعدَ السؤال.

وقدْ دلَّ القرآنُ الكريمُ علَى أهمِّ وأظهر حالات الوحي، وهيَ الحالاتُ التي عَزا إليهَا العلماءُ الحالات الأخرَى. قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[1].

وقدْ ذكَرَ ابنُ القَيِّم - رَحمَهُ اللهُ - مراتبَ الوحي فأوصلَها إلى سبعِ مراتبَ:

الأولَى: الرؤيا الصالحةُ وكانَ مبدأَ وحيه ﷺ، وكانَ لا يرَى رؤيَا إلا جاءتْ مثلَ فَلَق الصبح.

الثانيةُ: ما كانَ يُلقيه الملَكُ في رُوعه وقلبه، منْ غير أن يراهُ كَما قالَ النبيُّ ﷺ: «إنَّ رُوحَ القُدُسِ نفثَ في رُوعي أنَّه لنْ تموتَ نفسٌ حتَّى تستكملَ رزقها. فاتقُوا اللهَ وأجملُوا في

(١) سورة الشورى: ٥١.

الطلب ولا يحملنَّكُم استبطاءُ الرزق علَى أنْ تطلبوهُ بمعصية الله، فإنَّ مَا عندَ الله لا ينالُ إلا بطاعته».

الثالثةُ: أنهُ ﷺ كانَ يتمثَّلُ له الملَكُ رجلاً، فيخاطبُه حتى يعيَ عنهُ ما يقولُ لهُ، وفي هذه المرتبة كانَ يراهُ الصحابةُ أحيانًا.

الرابعة: أنه كانَ يأتيه مثلَ صلصلة الجرس، وكانَ أشدَّه عليه فيتلبَّسُ به الملَكُ حتَّى أنَّ جبينَه ليتفصَّدُ عرقًا في اليوم الشديد البرد، وحتى أنَّ راحلتَه لتبرُكُ به إلَى الأرض إذا كانَ راكبَها. ولقدْ جاءَهُ الوحيُ مرّةً كذلكَ وفَخذُهُ ﷺ على فخذ زيد بن ثابت فثقُلَتْ عليه حتى كادتْ تَرُضُّها.

الخامسةُ: أنه يرَى الملكَ في صورته التي خلقَهُ اللهُ عليهَا فيوحي إليه ما شاءَ اللهُ أن يوحيَهُ، وهذَا وقعَ له مرَّتين. كمَا ذكرَ اللهُ ذلكَ في سورة (النَّجْم).

السادسةُ: ما أوحاهُ اللهُ إليه وهو فوقَ السَّموات ليلةَ المعراج من فَرْض الصَّلاة وغيرها.

السابعةُ: كلامُ الله لهُ، منهُ إليه بلا واسطة مَلَك، كمَا كلَّم اللهُ

موسَى بن عمران عليه السلام. وهذه المرتبةُ ثابتةٌ لموسَى - عليه السلامُ - قطعًا بنصِّ القرآنِ، وثبوتها لنبيِّنا ﷺ في حديثِ الإسراءِ.

والصَّلْصَلةُ: صوتٌ ينبعثُ من وقُوعِ الحديد بعْضه علَى بعضٍ، ثمَّ أطلقَ علَى كلِّ صوتٍ له طنينٌ.

- والسؤالُ هنَا: كيفَ وقعَ تشبيهُ الوحي وهو محمودٌ - بصوت الجرس وهو مذمومٌ لصحةِ النهي عنهُ؟

وأجيبَ عنْ ذلكَ بأنَّه لا يلزمُ من التشبيه تساوي المشبَّه والمشبَّه به منْ جميع الوجوه، بلْ يكفي الاشتراكُ في صفة ما، فذكَرَ ما ألفهُ السامعونَ؛ تقريبًا للعقول، ثمَّ إنَّ للصوت قوةً وطنينًا، وقدْ وقعَ التشبيهُ به من حيثُ القوةُ لا منْ حيثُ الطربُ، فقدْ وقعَ التنفيرُ منهُ.

* ومعنَى (يُفصم) يقلعُ وينقطعُ وينجلي ما يغشَاه. وأصلُ الفصمِ القطعُ.

* ومعنى قوله ﷺ: «وقد وعيتُ عنهُ ما قالَ» أيْ فهمتُ القولَ الذي جاءَ به.

* والمرادُ بقوله: «وأحياناً يتمثَّلُ لي الملَكُ رجلاً» أيْ يتصوَّرُ. واللام في الملَك للعَهْد، وهو جبريلُ - عليه السلام -، وظهور الملَكُ في صورة رجلٍ لهُ أثرُهُ في المؤانسة للمخاطبِ.

* وقدْ جاءَ التعبيرُ متغايراً في الحالتين، ففي الأول قال: «وقدْ وعيتُ» بلفظ الماضي، وفي هذه الحالة الثانية قالَ: «فأعي» بلفظ الاستقبال؛ لأنَّ الوعيَ حصلَ في الأول قبلَ الفصم وفي الثاني حصلَ حالَ المكالمة. ويدلُّ قولُ السيدة عائشةَ رضيَ اللهُ عنهَا: «ولقدْ رأيْتُهُ ينزلُ عليه الوحيُ في اليوم الشديد البرد فيفصمُ عنهُ وإنَّ جبينَه ليتفصَّدُ عرقًا»، يدلُّ هذَا علَى أنَّه كانَ يعاني شدةَ نزول الوحي، لمَا فيه منْ مخالفة العادة، وهوَ كثرةُ العرق معَ شدة البرد، فإنَّ هذَا يدلُّ علَى أمرٍ طارئٍ شديدٍ علَى ما تحتملُه الطِّباعُ البشريةُ.

* * *

ولقدْ كانتْ عنايةُ الكتاب والسنَّة بظاهرة الوحْي عنايةً فائقةً تكشفُ

عن كيفية الوحي وأول بدئه، وما يصحبُ الوحيَ منْ سمات ومظاهرَ . . إلَى غير ذلكَ من الأمورِ .

ولمَّا كانَ موضوعُ الوحيِ هوَ الموضوعَ الأولَ والأكبرَ للإسلام؛ فهوَ طريقُ وصول العقيدةِ والتشريعِ والأحكامِ والأخلاقِ، منْ أجلِ هذَا اتجهَ إليه محترفُو الغزو الفكريِّ، وصوبَ أعداءُ الإسلامِ سهامَهُم إليه محاولينَ التشكيكَ والتلبيسَ والخلطَ بينَه وبينَ الحديثِ النفسيِّ والإلهامِ، وما إلَى ذلكَ ممَّا خاضُوا فيه بتبجُّح وتمحُّلٍ .

ولكنْ أنَّى لهمْ ذلكَ وظاهرة الوحي ثابتةٌ ثبوتًا واضحًا وقويًّا ومتواترًا، دلَّ عليهَا الكتابُ والسنَّةُ والإجماعُ مما يُفحمُ المنكرينَ والمكابرينَ والمعاندينَ .

وحاشَى النبيّ ﷺ أن يكونَ قد أتَى بهذا القُرآن الكَريم ـ الذي تكفّلَ اللهُ بحفظه ـ من عنْد نَفسه . وهذَا واضحٌ تمامَ الوضوح في قوله تعالَى : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[1] .

---

(١) سورة الحجر : الآية ٩ .

وفي قوله عَزَّ وجلَّ ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾[1].

وقوله جلَّ شأنُهُ - ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾[2].

* * *

(١) سورة الحاقة: الآية ٤٤ - ٤٧.

(٢) سورة الشورى: الآية ٢٤.

الدَّعْوَة السِّرِّيَّة

سارت الدعوةُ الإسلاميةُ في أول عهدهَا سرِّيَّةً، وشرعَ رسولُ اللهِ ﷺ يدعُو إلى عبادة الله وحدَه لا شريكَ لهُ، وتَرْك عبادة الأوثان، في خفاء وحَيْطَة، وكتمان وحَذَر؛ لأنَّ قريشًا كانتْ في غاية التعصُّب لمَا هيَ عليه منْ وثنية، ولما درجَ عليه الأبناءُ منهُم بعدَ الآباء؛ لهذَا لم يَجْهَر الرسولُ ﷺ بالدعوةِ في بادئ أمرِهَا، ولم يأته أمرُ الله بالجهرِ بهَا.

وكانَ أولَ مَنْ آمنَ به خديجةُ رضيَ اللهُ عنهَا؛ فقدْ صدَّقتْ بالدعوة من أول وَهْلة، وآمنتْ بمَا جاءَ ﷺ به وآزرَتْه، وخفّفَتْ عَنه كلَّ عناء، وهوّنتْ عليه أمرَ الناس.

وآمنَ عليٌّ بنُ أبي طالب ـ رضيَ اللهُ عنهُ ـ وكانَ أولَ مَنْ أسلمَ من الفتيان وعمرُه إذْ ذاكَ عشرُ سنينَ.

ثمَّ أسلمَ زيدُ بن حارثةَ مولَى رسول الله ﷺ، ثمَّ جاءَ الخيرُ الكبيرُ بإسلامِ أبي بكْر الصديق ـ رضوانُ الله تعالَى عليه ـ حيثُ قامَ إلى الإسلام، وكانَ مألوفًا لقومهِ، ومعروفًا، وكانَ تاجرًا مشهورًا بالمروءةِ

والمعروف وبالحقِّ . . فأسلمَ بدعوته ودخلَ الإسلامَ على يديْه عددٌ منَ الرجالِ، هُمْ:

عثمانُ بنُ عفانَ، والزبيرُ بنُ العوامِ، وعبدُ الرحمنِ بنُ عوفٍ، وسعدُ بنُ أبي وقَّاصٍ، وطلحةُ بنُ عبيدِ اللهِ، رضي الله عنهم.

وقدْ جاءَ بهمْ أبو بكر - رضيَ اللهُ عنهُ - إلى رسولِ اللهِ ﷺ فأسلمُوا وصلُّوا واستجابُوا للهِ ولرسوله . .

وكانَ رسولُ اللهِ ﷺ يقولُ:

«مَا دعوتُ أحدًا إلى الإسلامِ إلا كانتْ عندَه كَبْوَةٌ (أيْ تأخيرٌ ونظرٌ وترددٌ)، إلا مَا كانَ من أبي بكر بن أبي قُحَافَةَ، مَا عكَمَ عنهُ (أي تلبَّث) حينَ ذكرتُهُ لهُ، وما تردَّد إليه».

وحَسْبُ أبي بكر كرامةً ومثوبةً ومنزلةً وفضلاً قولُ رسولِ اللهِ ﷺ في شأنه:

«إنَّ أمَنَّ الناس عليَّ في ماله وصُحبته أبو بكر، ولو كنتُ متخذًا خليلاً لاتَّخذتُ أبا بكرٍ خليلاً، ولكنْ أخُوةُ الإسلامِ. لا تَبْقينَّ في

المسجدِ خوخةٌ (فتحة) إلا خوخة أبي بكر».

* * *

ثمَّ دخلَ الإسلام بعدَ ذلكَ أبُو عبيدةَ بنُ الجَرَّاح، وأبو سَلَمَةَ، والأرقمُ بنُ أبي الأرقمِ وغيرهُم.

وظلَّ العددُ يزدادُ حتَّى قاربَ الأربعينَ . . وكانُوا في هذه المرحلة السرية للدعوة لا يستطيعونَ أن يجابهُوا قريشًا ومجالسَهَا العامَّةَ، بلْ كانُوا إذَا أرادُوا القيامَ بعبادة ذهبُوا إلى شعاب مكةَ مُستخْفينَ عن العيون، بعيدينَ عنِ الناسِ حيثُ لا يراهُم أحدٌ.

في دار الأرقم

وكانَ المسلمونَ يلتقونَ النبيَّ ﷺ سرّاً، ولكنْ لَمَّا كَثُرَ العددُ اختارَ لهُم رسولُ الله ﷺ دارَ الأرقم مقرّاً، وفي هذه الدار كان يجتمعُ رسولُ الله ﷺ بالجماعة المسلمة الأولَى، وكانتْ هذه الدارُ بمكةَ علَى جبل الصفَا، وفيهَا أسلمَ عددٌ كبيرٌ.

وكانَ رسولُ الله ﷺ يعلِّمُهُم أمورَ دينِهم، ويقرئهُم القرآنَ الكريمَ.

وقد مكَثُوا في دار الأرقم حتَّى تكامَلُوا أربعين رجلاً منْ المسلمينَ السابقينَ المخلصينَ، وكانَ آخرَهم إسلامًا عمرُ بنُ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ.

وفي دار الأرقمِ هذه كانَ يجتمعُ هؤلاء السابقونَ برسول الله ﷺ والإسلامُ مَا يزالُ بعدُ في أول عهده، أيْ في مرحلته السرِّية، ولذلكَ مَا إنْ ترامَى الخبرُ إلى سَمْع كفار قريش حتَّى سعَوْا جاهدينَ في محاولة للقضاء عليه.

وكانَ عمرُ بنُ الخطاب - قبلَ أنْ يدخلَ في الإسلامِ - قدْ فكَّرَ

وقَدّر، وسَعى لقتل رسول الله ﷺ ليريحَ قريشًا منهُ، بعدَ أنْ سبَّ الآلهةَ، وفرَّق الناسَ.

ولَمَّا ذهبَ إلى هذه الوجهة الخاسرة الضالَّة لَقيَهُ في الطريق نعيمُ بنُ عبدِ الله، فلمَّا أخبرَ بما ينوي فعلَه، قالَ لهُ نعيمٌ:

- يَا عمرُ، أترى بني عبد مناف تاركيكَ تمشي علَى الأرض وقدْ قتلتَ محمداً؟ أفَلا ترجعُ إلى أهلِ بيتِكَ وتقيمُ أمرهم؟

وكانتْ أختُ عمرَ فاطمةُ وزوجُها سعيدُ بن زيد قد أسلمَا، فقفلَ عمرُ راجعًا إليهما، ودخلَ عليهما، وكانَ عندَهُمَا خبَّابُ بنُ الأرتِّ ومعَهُ صحيفةٌ فيهَا سورةُ طه يقرئهُمَا إيَّاها فلما سمعُوا صوتَ عمَر تغيَّب خبّابٌ، وأخذتْ فاطمةُ الصحيفةَ، وكانَ عمرُ قد سَمِعَ عندمَا اقتربَ من البيت قراءةَ خبّابٌ عليهِمَا، فلمَّا دخلَ قالَ: ما هذه الهَيْنَمةُ[1] التي سمعتُ؟

فقالا لهُ:

(١) الصوت الخفيّ.

- ما سمعتَ شيئاً .

قالَ :

- بلَى ، والله لقدْ أخبرتُ أنكمَا تابعتُمَا محمداً على دينه .

وضربَ عمرُ زوجَ أخته سعيدَ بنَ زيد ، فقامتْ إليه أختُه فاطمةُ بنتُ الخطاب لتكُفَّه عنْ زوجهَا فضربَها هيَ الأخْرَى .

فلمَّا فعلَ ذلكَ قالتْ لهُ أختُه :

- نعمْ قدْ أسلمنَا ، وآمنَّا بالله ورسوله ، فاصنعْ ما بَدا لكَ . فلمَّا رَأى عمرُ مَا بأخته من الدمِ ندمَ علَى ما صنعَ ، وقالَ لأخته :

- أعطيني هذه الصحيفةَ التي سمعتُكم تقرأونَ آنفًا ، أنظر مَا هذَا الذي جاءَ به محمدٌ .

فقالتْ أختُه :

- إنا نخشاكَ عليهَا . .

فقالَ :

- لا تخافِي .

وحلفَ لهَا بآلهته لَيَرُدَّنَّها إذَا قرأهَا إليهَا، فلمَّا قالَ ذلكَ طمِعَتْ في إسلامه، فقالتْ لهُ:

- يا أخي إنكَ نَجِسٌ علَى شركِكَ، وإنَّه لا يمسُّها إلا الطاهرُ.

فقامَ عمرُ فاغتسلَ؛ فأعطَتْهُ الصحيفةَ وفيهَا سورةُ طه فقرأهَا:

﴿ طه ﴿١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴾

فلمَّا وصل إلى قوله تعالى:

﴿ لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴾[1] . . قال:

- ما أطيبَ هذَا الكلامَ وأحسنَه.

فلمَّا سمعَ ذلكَ خبّابٌ خرَجَ إليه وقالَ لهُ:

- يا عمرُ والله إنِّي لأرجُو أنْ يكونَ اللهُ قدْ خصَّكَ بدعوة نبيِّه؛ فإنِّي سمعتُه ﷺ أمسِ وهوَ يقولُ: «اللهمَّ أيِّد الإسلامَ بأبي الحكمِ ابنِ هشامٍ، أو بعمرَ بنِ الخطابِ». . فاللهَ اللهَ يا عمرُ.

فقالَ عمرُ: فدُلَّني يا خبابُ على محمد حتى آتيَه فأسلمَ.

---

(١) سورة طه (١ - ١٥).

فقالَ لهُ خبابٌ:

- هوَ في بيتٍ عندَ الصَّفَا ومعَهُ نفرٌ من أصحابه.

فأخذَ عمرُ سيفَه فتوشَّحَه [1] ثمَّ ذهبَ إلَى هناكَ، فضربَ عليهمُ البابَ، فلمَّا سمعُوا صوتَه، قامَ رجلٌ من أصحاب رسول الله ﷺ فنظرَ منْ خلال الباب فرآهُ متوشِّحًا السيفَ، فرجعَ إلى رسول الله ﷺ وهوَ فزِعٌ فقالَ:

- يا رسولَ الله هذَا عمرُ بنُ الخطاب متوشِّحًا السيفَ.

فقالَ رسولُ الله ﷺ:

- ائذنْ لهُ.

ودخلَ عمرُ بنُ الخطاب، وقامَ إليه رسولُ الله ﷺ حتَّى لَقيهُ في الحجرة، فأخَذَ حُجْزَتَهُ - وهوَ موضعُ شدِّ الإزارِ - ثم جَبَذَهْ به جبذةً شديدةً وقالَ:

- ماجاءَ بكَ يا ابنَ الخطاب، فوالله ما أرَى أن تنتهيَ حتَّى تنزلَ بكَ

(١) أي حمله.

قارعةٌ[1].

فقالَ عمرُ:

- يا رسولَ الله جئتُك لأومنَ بالله وبرسوله وبمَا جاءَ منْ عند الله.

فكبَّر رسولُ الله تكبيرةً عَرَفَ أهلُ البيتِ من أصحابِ النبيِّ أنَّ عمرَ دخلَ في الإسلامِ.

* * *

وبدخول عمرَ في الإسلام تَمَّتْ نهايةُ المرحلة السّرية للدعوة، فلمْ يرضَ عن اختفاء المسلمينَ في صلاتهم، وإنَّما راحَ عمرُ يناضلُ قريشًا حتَّى صلَّى عندَ الكعبة وصلَّى المسلمونَ معهُ.

وهكذا نرَى كيفَ شقَّت الدعوةُ طريقهَا بينَ غيوم الشِّرك الكثيفة في جوٍّ ملبَّد خانق، فشاءَ اللهُ تعالَى للفجرِ أن ينبثقَ، ولشمس الهدَى أن ترسلَ أشعَّتها إلى كلِّ الأرجاء.. فإذا بالصفوة المختارة قد سبقتْ إلَى الإسلام، وحملتْ أشعَّةَ الخير تهدي الحيارَى، وتنافحُ عن الإسلام في كلِّ زمان ومكان.

---

(١) أي داهية أو مصيبة.

تذكر

مُوجَزُ الأحداثِ مِنْ نزول الوحي إلى الجهرِ بالدَّعوة

* في سنة ٦١٠ م بلغَ النبيُّ ﷺ منْ عمره أربعينَ عامًا، وقد كانَ يخلُو بنفسه في غار حراء، وفي شهر رمضانَ. نزلَ جبريلُ على المصطفَى ﷺ بالوحي الإلهيِّ وكانَ أولَ ما نزلَ به قولُ الله تعالَى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ إلخ الآيات منْ سورة العلَق.

* بعدَ ذلكَ فترَ الوحيُ عنْ رسول الله ﷺ أيامًا، ثم عاودَ جبريلُ النزولَ عليه بقول الله تعالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾، فكانَ ذلكَ إيذانًا ببدء تبليغِ الدعوة.

* بدأ الرسولُ ﷺ الدعوةَ سرًّا ثلاثَ سنواتٍ من عامِ ٦١٠م إلى ٦١٢م.

* أوَّلُ منْ أسلمَ منَ النساء السيدةُ خديجةُ بنتُ خويلد رضيَ اللهُ عنها، وأولُ منْ أسلَم من الرجال أبو بكر الصدِّيقُ، وأولُ منْ أسلمَ من الصبيان في ذلكَ الوقت - عليُّ بنُ أبي طالبٍ، وأولُ منْ أسلمَ منَ

العبيدِ بلالُ بنُ رباح - رضيَ اللهُ عنهم أجمعين.

* ومنْ أوائل المسلمينَ دخولاً في الإسلامِ، أبو عبيدةَ بنُ الجرَّاح، والأرقمُ بنُ أبي الأرقم، وأبو سَلَمَةَ بنُ عبد الأسد، وعثمانُ ابنُ مَظْعون، وعبيدةُ بنُ الحارث، وسعيدُ بنُ زيد، وزوجتُه فاطمةُ بنتُ الخطاب - أختُ عمرَ بن الخطَّاب، وخبَّابُ بنُ الأرَتِّ، وعبدُ الله ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهمْ أجمعينَ.

* وقدْ أسلمَ جميعُ هؤلاء سرّاً، وكانَ الرسولُ ﷺ يجتمعُ بهمْ سرّاً في دارِ الأرقم بن أبي الأرقم، يعلمُهُم ما ينزلُ عليهِ منْ كتاب الله.

* وفي نهاية المرحلة السرّية كانَ عددُ المسلمينَ قدْ بلغَ أربعينَ رجلاً وامرأة.

وبدأتْ مرحلةٌ جديدةٌ منَ الدعوةِ، وهي الدعوةُ الجهريةُ.

الجَهْرُ بالدَّعْوَة

مكثت الدعوةُ إلَى الإسلام في مكةَ المكرمة سرِّيةً ثلاثَ سنينَ، بلغ عددُ المسلمينَ خلالَها أربعينَ رجلاً غيرَ النساء.

وشاءَ اللهُ تعالَى لرسوله ﷺ أنْ يجهرَ بالدعوة، فأنزلَ عليه قولَه سبحانَه: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾[1].

وأمرهُ اللهُ أنْ ينذرَ عشيرتَه الأقربينَ، فقالَ تعالَى:

﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

فقام النبيُّ ﷺ بتنفيذِ الأمرِ الإلهيِّ، فصعدَ علَى جبلِ الصَّفَا مناديًا قومَه:

- يا بني فِهْرٍ.. يا بني عَدِيٍّ.

فلمَّا اجتمعُوا قالَ لهُم رسولُ الله ﷺ:

---

(١) الحجر: ٩٤.

(٢) الشعراء: ٢١٤، ٢١٥.

أرأيتُمْ لو أخبرتُكُم أنَّ خيلاً بالوادِي تريدُ أنْ تغيرَ عليكُم أكنتُمْ مصدِّقيَّ؟

فقالو :

- ما جرَّبنا عليكَ كذباً .

فقالَ ﷺ :

- فإنِّي نذيرٌ لكُم بينَ يَدَيْ عذاب شديد .

ثمَّ قامَ ﷺ بتنفيذ الأمر الإلهيِّ الثانِي وهوَ : أن ينذرَ عشيرته الأقربينَ فجمعَهُم وقالَ لهُمْ :

- «يا بني كعب بن لُؤَيٍّ ، أنقذُوا أنفُسكم منَ النار ، يا بني مُرَّةَ ابن كعب ، أنقذوا أنفُسكم من النارَ ، يا بني عبد المطلب ، أنقذُوا أنفسكُم منَ النار ، يا فاطمةُ ، أنقذي نفسَك من النار لا أملكُ لكُمْ منَ الله شيئًا ، غيرَ أنَّ لكمْ رحِمًا سأبلُّها ببلالِها[1]» .

---

(١) أي أصلها بصلتها .

فلَمْ يستجيبُوا لهُ وتعلّلُوا بتقاليدهم الموروثة وباتباع ما كان عليه آباؤهم. فلمَّا عابَ النبيُّ ﷺ آلهتَهم، وسفَّه تقاليدَهم وأحلامَهم عادوا وتنكَّرُوا لهُ ولدعوته.

ومشَى جماعةٌ منْ أشراف قريشٍ إلى عمّه أبي طالبٍ، وقالُوا له:

- يا أبَا طالب، إنَّ ابنَ أخيكَ قدْ سبَّ آلهتَنا، وعابَ دينَنا، وسفَّهَ أحلامَنا، وضلَّل أبناءَنا، فإمَّا أنْ تكُفَّه عنَّا، وإما أن تخلِّي بيننا وبينه..

فردَّهُم أبو طالبٍ برفقٍ ولينٍ فانصرفُوا.

ومضَى رسولُ الله ﷺ في إظهار دين الله وفي الدعوة إليه، فعاودُوا الكَرَّةَ مرةً أخرَى إلَى أبي طالبٍ بعدَ أن اشتدَّ الأمرُ بينَه وبينَهم، فقالُوا له:

- يا أبا طالب، إن لك سنّا وشرفًا ومنزلةً فينَا، وإنَّا قدْ استنهيناكَ منَ ابن أخيكَ فلَمْ تنهَهُ عنّا، وإنَّا والله لا نصبرُ علَى هذَا منْ شتمِ آبائنا، وتَسْفيه أحْلامنا، وعيب آلهتنا حتى تكفَّه عنا، أو ننازلَه وإياكَ في ذلك حتَّى يَهْلكَ أحدُ الفريقين.

وعندئذ عَظُمَ علَى أبي طالب فراقُ قومه وعداوتُهم، وفي الوقت نفسه لا يمكنُ أن يفرِّط في رسول الله ﷺ ولا في حمايته.

فقالَ أبو طالب للرسول ﷺ:

- يا ابنَ أخي، إنَّ قومَكَ قد جاءوني فقالُوا لي.. فأبقِ عليَّ وعلى نفسكَ، ولا تُحمِّلْني من الأمر ما لا أطيقُ.

فأجابَه رسولُ الله ﷺ إجابةً كلُّها قوةٌ وإيمانٌ، وصاحَ بعبارته التي ظلَّتْ على مَرِّ التاريخ عُنوانَ الشجاعة في الحقِّ، وآيةَ الآيات على التفاني في سبيل العقيدة، قالَ:

«والله يا عَمّ، لو وضعُوا الشمسَ في يميني، والقمرَ في يساري علَى أنْ أتركَ هذَا الأمرَ حتَّى يظهرَه اللهُ أو أهلكَ فيه مَا تركتُه».

ثمَّ استعبرَ رسولُ الله ﷺ فبكَى، ثمَّ قامَ، فناداه أبُو طالب قائلاً له:

- أقبلْ يا ابنَ أخي.

فأقبَلَ عليه النبيُّ، فقالَ أبو طالب مشيراً بيده:

- اذهبْ يا ابنَ أخي فقلْ ما أحببتَ، والله لا أسْلِمُك لشيءٍ أبداً.

وبهذا تكونُ قد فشلَتْ حيلةُ المشركينَ هذه في محاولتهم فصْلَ عمِّه أبي طالب عنه وتخلِّيه دونَه، بل إنَّه حتَّى لوْ حدثَ هذا فإنَّ رسولَ الله ﷺ لنْ يتخلَّى عن دعوته حتَّى لو قايضُوه عليهَا بالشمس والقمر في يديْه، بل حتَّى لو هلَكَ في سبيلِ ذلكَ.

المحتويات

الموضوع	الصفحة
- في غار حراء	٥
- نزول الوحي	٧
- حول كيفية الوحي ومراتبه	١٢
- الدعوة السرية	١٩
- في دار الأرقم	٢٢
- تذكر . . موجز الأحداث من نزول الوحي إلى الجهر بالدعوة . .	٢٨
- الجهر بالدعوة	٣٠